تجنب، كشف و تدبير الإعتداء الجنسي على الأطفال

تصدير المترجم

عرف مجتمعنا مؤخرا العديد من قضايا الإعتداء الجنسي و الإغتصاب على الأطفال. كانت قضية "الحاضي" من تودانت القضية التي أخرجت هذا النوع من الانحرافات ، في مجتمعنا ، من تحت طائلة قانون الصمت و المسكوت عنه. بعدها جاءت قضية الإسباني مغتصب أطفال القنيطرة ليهتز المجتمع ككل و خصوصا المجتمع المدني الذي كان تجاوبه مع هذه القضية ترجمة لإنشغال المغاربة بتفاحش هذ السلوكات و كيفية الحد منها و القضاء عليها نهائيا.

و الأهم من هذا ، هو أن هذه القضايا ، التي خرجت إلى العلن ، عرت عن واقع يعكس انعدام المعرفة و الخبرة بهذا النوع من السلوكات الشاذة ، و انعدام أي برنامج سياسي واضح و متكامل من طرف السلطات العمومية على اختلافها. أيضا غياب أي برامج تكوينية تمكن المتدخلين و الفاعلين في مثل هذه القضايا ، كالعناصر الأمنية ، القضاء ، الخبراء المحلفون ، أطر التربية و التعليم و كل تنظيمات المجتمع المدني المهتمة بالطفولة و الأسرة ، من التكفل بالضحايا و الأسرة بطريقة احترافية عالية بعيدا عن الاستغلال الإعلامي الذي لا يهمه من الأمر سوى تحقيق السبق و بالتالي الربح أكثر.

هذ الخصاص الحاد هو الذي كان حافزا قويا لمبادرتي إلى المغامرة لترجمة مؤلف السيد جيرالد براسين Gérald Brassine خبير بلجيكي ، منذ ما يزيد على ثلاثين سنة ، في قضايا الاعتداءات الجنسية و اغتصاب الأطفال. و ما زادني تحفيزا هو مقابلتي السيد ج. براسين بصفة مباشرة ، خلال أسبوع كامل ، حيث استضفته للقيام بعرض حول هذا الموضوع و للتشاور معه من أجل القبول بإعطاء تكوين مركز حول تقنياته العلاجية لهذا النوع من الصدمات و الاستفادة من خبرته الغنية في هذا المجال.

الترجمة لم تنته بعد ، ولكن ارتأيت أن أعرض منها ما تم حتى يتمكن كل من يهتم بمقاربة الموضوع من خلال نظرة خبير مختص في الميدان اشتغل لسنين مع الأطفال و البالغين الذين كانوا ضحية اغتصابات ، اعتداءات جنسية أو زنى المحارم.

سأكون شاكرا بالتوصل بملاحظاتكم و تعليقاتكم حول السبل و الوسائل التي ستمكننا ، بتظافر الجهود ، كل فرد حسب ما يستطيع ، حتى نتجاوز هذا الخصاص الحاد في معالجة هذه الظاهرة ، الذي يعتمد لحد الساعة إلا على المقاربة القانونية ، و نساهم في تحصين مجتمعنا للمستقبل و حماية و وقاية طفولتنا من هكذا معاناة.

و الله ولي التوفيق.

تصدير المؤلف

في الآونة الأخيرة ، استمرت حالات الاعتداء الجنسي على الأطفال في التتابع بشكل كبير ، في بلجيكا ، أوروبا ، الولايات المتحدة أو في أجزاء أخرى من العالم (بما في ذلك المغرب)[1] ، وبرزت الى العلن بتألقها كفضائح مدوية أمام الرأي العام. النقاشات التي تلت ذلك ، في كل مرة ، تنم عن احتمال وجود شبكات متخصصة في الاستغلال الجنسي للأطفال وتثير الوعي وتفتحه حول أهمية ومدى خطورة الظاهرة.

هكذا يكتشف عامة الناس أن الإعتداءات الجنسية على الأطفال تتم من طرف أناس في صفة حيوانات مفترسة ، قتلة للأطفال وبراءتهم ، ولكن يكتشفون أيضا ، وخاصة ، أن العديد من هذه الإعتداءات الجنسية ، تتم في المحيط القريب للطفل. المعتدي يمكن أن يأخذ وجوها متعددة ، وحتى وجها مألوفا و وديا: الأب ، الجد ، العم أو الخال ، صديق العائلة ، المعلم أو المربي ، أو حتى كذلك الأخ الأكبر ، الزميل وفي بعض الأحيان الأم أو الأخت...

أمام هذه الوضعية ، يجد الآباء أو بصفة عامة ، البالغين المسؤولين عن تربية الأطفال ، أنفسهم بلا حول و لا قوة ؛ يريدون أن يكونوا يقظين ومهتمين ، ولكن ، لا يدرون من و ماذا سيراقبون حتى إنهم غير قادرين على تبين الفرق بين طفل يعاني من خلل في النمو و طفل في معاناة ومحنة حقيقية... وكثير منهم يسألني عن كيفية التصرف والسلوك السليم عند وجود شبهات وعن الخطاب و الردود التي يجب توجيهها للطفل الذي هو موضوع المحنة و المعاناة.

---

[1] إضافة من المترجم

يتوجه كتابي هذا إلى هؤلاء البالغين ، ذوي حسن النية و الإرادة ، إنني لا أدعي إنجاز دليل شامل و متكامل ، ولكني أقترح سلسلة من الأفكار والتوجيهات التي من شأنها أن تمكن بطريقة أفضل ، تجنب ، اكتشاف ومعالجة واقع الاعتداء الجنسي على الأطفال ، وخلق ثقافة مضادة و متصدية للإعتداء الجنسي عليهم.

المناهج التي أقدم هنا لا تستند إلى رؤى نظرية وإنما هي ثمرات ، لتجربة ميدانية ، نضجت ببطء لأكثر من خمسة وعشرين عاما في اتصال مباشر مع الأطفال والمراهقين من ضحايا الاعتداء الجنسي ، والبالغين الذين يعيشون مع بقايا هذه الصدمة القديمة. إنها بلورة لخمسة وعشرين سنة من الخبرة في تقديم المشورة ومساعدة الضحايا على أخذ بداية جديدة في الحياة.

مهما كانت القيمة والفائدة من أساليبي و مناهجي الوقائية من الإستغلال الجنسي للأطفال ، أود ، مع ذلك ، أن أحذر القارئ من المخاطر الرئيسية التي من شأنه مواجهتها أمام قضية الإغتصاب الجنسي للأطفال ، وإحصائيا ، فـإن لديه فرصة ضئيلة للهروب من هذه المواجهة[2].

هناك خطر على الطفل ، بعد الكشف و البوح عن إيذاء واعتداء جنسي ، بغض النظر عن مدى خطورته ، أن ينحى جانبا ، و يرفض الكبار هذه الشهادة وتُترك دون أن يتم الرد عليها ، وهذا سوف يجرح و يضر الطفل وللمرة الثانية وعلى نحو خطير.

هناك خطر على البالغ ، من باب أنها قضية مسؤولية ، من باب ألا يكون مستعدا للتعامل مع هذا الوضع لأن مثل هذا الكشف مؤلم جدا وعسير القبول ويصعب تحمله. هناك خطر أيضا في أن الذي يسمع هذه الشهادة أو هذا البوح من الطفل ، يجد نفسه امام حتمية و واجب التخلي عن معتقداته ونبذها و زعزعة وجهات نظره بشأن بعض الناس و ايجاد نفسه مضطرا ، إذا كان يريد حماية الطفل ، إلى إعادة سبك وترميم و إجراء إصلاح كامل لمنظومته الأسرية أو/ و الاجتماعية.

ومع ذلك ، ما وزن هذه المخاطر بالنظر إلى التخفيف و الترويح عن الطفل بالاستماع إليه و فهمه في النهاية ؟ ما وزنها بالنظر إلى الجهل ، عدم المعرفة و الإهمال لهذه الصدمات الخطيرة ؟ أو ما وزنها بالنظر إلى خطر الحضور كمتفرج على الدمار النفسي النهائي لواحد أو كثير من الأطفال ؟ أو بالنظر إلى استمرارية هذه الصدمات والانحرافات ، من جيل إلى آخر ، في صمت مطبق ؟

2 تشير التقديرات إلى أنه قبل حلول سن الثامنة عشرة، واحد من كل خمسة أطفال، على الأقل، كان ضحية لاعتداء جنسي، أهمية هذا الرقم تشير إلى أنه من الصعب ألا نعرف ولو حالة واحدة على الأقل من محيطنا القريب.

في مواجهة هذه التحديات ، قررت ، حتى ولو صدمت القارئ أو عرضت نفسي للنقد ، تقاسم و تبادل تجربتي على أمل المساهمة ، مع أولياء الأمور وغيرهم من المسؤولين عن التربية ، لضمان مستقبل الأطفال.

ولأنني عالم نفس و لست رجل قانون ، فإنني لن أعالج إلا الجانب الخاص بظاهرة الاعتداء الجنسي على الأطفال. مقترحاتي ليست بديلا عن الخطوات الواجب اتخاذها لدى السلطات القضائية للتنديد و الدعوى بالنسبة للحقائق التي ثبتت جدواها.

في نهاية هذا الكتاب ، سيفاجأ القارئ ، بكل تأكيد ، بأن أساليبي ومناهجي لا تأتي بأشياء جديدة سوى التي منبعها الحس السليم أو البداهة. إنني لا أدعي أي شيء سوى الجرأة بالتذكير بهذه الأشـياء و هـــذه البداهة ضد هذه الثقافة التي تشجع وتطمــس الانــتهــاكات ضـد الأطفال. (جيرالد براسين Gérald BRASSINE)

الاجتناب و الوقـايـــــة

"بسبب ثقافتنا ، حينما يسقط طفل في شباكي ، فإنه يبقى حبيسها لفترة طويلة" (تصريح شاذ جنسي تائب)

وكانت الثقافة في يوم من الأيام...

بعض الشواذ جنسيا ، المعتدين على الأطفال ، التائبين يضعون ثقافتنا في الميزان وإنهم على حق تماما. ثقاقتنا تغذي و تحافظ على الكثير من المحرمات و الطابوهات بخصوص الحياة الجنسية. إنها تفرضها على المجتمع بقوة إلى درجة نستطيع معها القول أنها متواطئة مع تصرفات المتحرشين بالأطفال و تسهل عملهم.

وعلى الرغم من التحرر الجنسي ، فإن هذا الوضع يستمر ، ولكن ، في الحقيقة ، نحن لا ندرك ذلك لأننا عميان بالنسبة لثقافتنا كما السمك أعمى بالنسبة للماء ... ومع ذلك ، إذا كنا نريد أن نتساءل بصدق و نزاهة ، علينا أن ندرك أن لدينا خبرة الإحجام ، مرارا وتكرارا ، دائما و أبدا ، عن الحديث عن الجنس ، ناهيك مع الأطفال. و بالنسبة للكبار ، يبدو النشاط الجنسي شائعا و تافها ، ولكن عندما يتعلق الأمر بشرحه للأطفال ، الجميع - الوالدين أو المعلمين - كل على حدة ، يتخيل أن الطرف الآخر قد أنجز المهمة وتطرق إلى الموضوع ، لكن نتوقف عند هذا الحد. أو ، كما كانت تقترح **فرانسواز دولتو**Françoise DOLTO ، منذ أربعين سنة ، انتظروا حتى يضع الطفل أسئلة. وغالبا ما يكون قد فات الأوان جدا.

في السن التي يمكن أن يضع فيها الطفل أسئلة - إذا كان يجرؤ على ذلك بالطبع - تكون البيئة الثقافية قد وضعت فعليا جدارا من الصمت المطبق و فرضت محرماتها و طابوهاتها على جميع أنحاء القضية الجنسية. الثقافة هي صورة للموسيقى: إنه لا وجود لها من دون صمت. في هذا الصمت المطبق ، الطفل - لا بد أن نضع أنفسنا مكانه — يتلقى فقط معلومات متشرذمة ، قـصاصات متفرقة وعلامات غير واضحة التي من خلالها يجب أن يستنتج كل شيء من تلقاء نفسه. عندما يسمع قول النكات المتعلقة بالجنس ، على سبيل المثال ، الطفل يدرك الانزعاج والإزعاج ، الابتسامات المختنقة و الاستحيائات المحمرة فتترسخ لديه فكرةٌ مـؤداها أن هناك شيء خاطئ لأنه لا يستطيع فك شـفرة

و ألغاز طابوهات و محرمات البالغين. حتى قبل أن يسأل سؤاله الأول ، فإن الطفل لديه بالفعل ، صورة مشوهة و قد تكون مخيفة عن النشاط الجنسي.

تخيل أن يكون لديك أربع أو خمس سنوات وتستيقظ بعد حلم مزعج. تذهب إلى أسفل إلى الصالة لتحكيه لأمك التي تشاهد فيلما على التلفاز والذي التقطت منه ، في تلك اللحظة ، صورا لزوجين يمارسون الجنس بحب وعاطفة ونهم. ماذا ستتذكر من هذا المشهد؟ وعلى الرغم من أن الممارسة الجنسية هي نوع من المعركة ، حركة عنيفة ، نوعا ما ، مصحوبة بالتأوهات و الصياح باختصار ، ما يمكنه أن يُشكل مادة دسمة لكابوس آخر. وإذا شعر الطفل أن والدته لديها إزعاج في الحديث عن هذا المشهد أو الجنس بصفة عامة ، فإنه سوف يستنتج و يخلص إلى أن الحديث عما لمحت عيناه أمر محرج ومن المحرمات. يوضح هذا المثال ، مرة أخرى ، مغالطة و مفارقة تاريخية تستمر في الوجود دون أن يلاحظها أحد ، من قبل معظم معاصرينا وهي أن التلفزة ، ومنذ وقت طويل ، تعرض ، ودون أن تصدم أحدا ، برامجا و أفلاما تُظهر ما لا نجرؤ على التحدث عليه.

الأخطر من ذلك هو حالة طفل يبلغ من العمر خمس سنوات تعرض للاغتصاب مرارا على يد والده. الأب ، محكوما على هذه الجرائم ، كان سيخرج من السجن والعودة للعيش في المنزل و عندما زارت أخصائية اجتماعية الطفل الضحية و سألته إذا كان يعرف لماذا كان والده في السجن ، أجاب لأنه كان يفعل كما في السلسلة البوليسية "ستارسكي وهاتش" ، القيادة بسرعة كبيرة على الطريق السريع أو سرقة الأموال ...

هكذا ، من بين جميع البالغين الذين تعاملوا مع هذه القضية ، منذ الكشف عن الحقائق ، لا أحد — أفراد العائلة المقربة ، المعلمين ، الشرطة ، القضاة ... - قد قال أي شيء لهذا الطفل عن الجنس ، المحرمات ، والاعتداءات ، وما إلى ذلك. بل إن هذا مثال صارخ على الدور البئيس لعاداتنا الثقافية لأنه باختيارنا الصمت ، لم نقم بإنشاء لأي حاجز حماية للطفل. في هذا السياق ، انتكاسة الأب و إمكانية العود لنفس الأفعال مع طفله سُهلت كثيرا ، والضحية لا يزال لا يعرف أن هذه الممارسات يجب عليه رفضها و طلب المساعدة.

وبالإضافة إلى ذلك ، نحن أيضا ضحايا مصيدة وسراب ثقافي يجعلنا نعتقد أن كل شيء قيل عن الحياة الجنسية ، ووُضح وفُهم في حين أن الأطفال غالبا ما يتلقون فقط إلا صورة جزئية ، مشوهة أو كاذبة.

وهكذا ، فأولئك الذين أعمارهم أربعين أو خمسين سنة اليوم نشؤوا ، في نفس الوقت ، مع التلفزة وأصبحوا بالغين في حين كان الكشف عن الجنس يتم تدريجيا. في موازاة ذلك ، اكتسبوا تجربتهم الخاصة مما مكنهم من فهم ما يرون من الصور و وضعها في سياقها الصحيح. ولكن الطفل يتلقى هذه الصور و هو لا يتوفر على أدنى خبرة و معلوماته ناقصة ، وبالتالي لا يمكنه فك شفرة ما يتلقى ويبني صورة جزئية ، مشوهة أو استيهامية ، عن النشاط الجنسي.

العرض التقديمي للحياة الجنسية للأطفال - عندما يحدث — يحترم و يخضع بانتظام لأنماط من المحرمات الثقافية من خلال التركيز على الإنجاب فقط. بعد مثل هذا التفسير ، يخرج الطفل برؤية ضيقة للحياة الجنسية و غالبا ما يعتقد أن والديه مارسوا الجنس مرات محددة بعدد الأطفال الموجودين في الأسرة.

وعلاوة على ذلك ، إذا تحدثنا للطفل عن الجنس إلا لتحذيره من المتحرشين بالأطفال ، قد ينزلق إلى التعميم و وضع النشاط الجنسي ، حتى في صوره السليمة ، في سلة من الانحراف ، بما في ذلك كل المتعة التي كان يشعر بها منذ أن كان طفلا ، وهذا تشويه للحياة الجنسية.

والمدرسة هي أيضا ضحية لثقافتنا. إذا كانت تدعو ، في بعض الأحيان ، المدربين المتخصصين ، لإطلاع الأطفال ، إلا أن هؤلاء ، لا تكون لديهم دائما كل الملكة و السهولة لتقديم صورة كاملة عن الحياة الجنسية.

أو أن خطاب المتخصصين يبقى كلاما متعارف و متفق عليه ، ثقيل وممل و غير جذاب ، في حين ينبغي أن تكون هذه المناقشة احتفالا لأن النشاط الجنسي هو قبل كل شيء متعة وسعادة مشتركة.

في الأخير ، الطفل لديه ، في معظم الحالات ، سوى رؤية جزئية ، مجزأة و متقطعة ، حول النشاط الجنسي. إنه لا يعرف ما هو جيد وما هو سيئ ، أين الخير و أين الشر ، لكنه يفهم تماما أن هذا الموضوع ، الجنس ، يضع البالغين في وضعية غير مريحة. مما يترك الباب مفتوحا أمام جميع التلاعبات العقلية والميدان حر تماما أمام المعتدين و الشواذ.

خـــلق ثقـــافة أسرية

لا يجب حد اتصال الطفل مع العالم الواقعي ، تحت ذريعة حمايته. سيكون من الوهم أن نأمل حماية الأطفال من أي شيء كان ، بحجزهم ، داخل المحيط الأسري ، وحرمانهم من أي علاقات اجتماعية ، بما في ذلك العلاقة مع الأقارب. وبطريقة أو بأخرى ، سوف يكون الطفل دائما في مواجهة

مع واقع وقوانين ثقافته ، و لا يمكنه تفاديها. لذلك أقترح تربيته على بيئته الثقافية ، وبالتالي إعداده للتعامل ، إن عاجلا أو آجلا ، مع المحرمات والمبالغات التي سوف تمليها عليه هذه الثقافة. يتعلق الأمر بأخذ الثقافة على وجه السرعة ، بطريقة أو بأخرى ، أو أفضل من ذلك ، خلق ثقافة أسرية فرعية نشيطة لا تنتظر أن تأتي المشاكل للرد ولا تتزعزع بأول التيارات الآتي من الخارج ...

التحدث مع الطفل منذ سن مبكرة وبتكرار

أقترح طرح الموضوع والتحدث عن الجنس للأطفال منذ سن مبكرة ، يعني من ثلاث إلى ثلاث سنوات ونصف. أعلم أن الكل سوف يعتقد أن هذه سن مبكرة جدا ، ونتساءل ما يمكن أن يتمثله الطفل ، بشكل جيد ، في هذه السن. شخصيا أجيب على هذه الاعتراضات أن الطفل يفهم كل شيء أو كل شيء تقريبا. وحتى إذا كان لا يفهم إلا بعض الأشياء الصغيرة ، فإن هذا الحوار الأولي يسمح للبالغين التدرب على مناقشة المسألة الجنسية ، على الرغم من مخاوفهم و رقابتهم الذاتية ، المفروضة من تربيتهم ، و التي تنعكس بشكل فوري تقريبا ، و وضع علامات و معايير للمناقشات التابعة.

الطفل في هذا العمر واقعي ويتلقى ما يقال له دون حرج ، من دون مشكلة ودون خجل. عندما نقول له "هذا هو القضيب ، هذا هو الفرج" أو "ممارسة الجنس ممتعة" الخ ، فإنه لا يتلقى هذا الخطاب و لا ينظر إليه بشكل مختلف بالمقارنة مع أن نقول له:" هذه بطة ، أو هذا كرسي ". إنه لا يعرف (بعد) كيف يفكر في الأمر ، ولكنه يسجل هذه المعلومات دون تمييز خاص بالمقارنة مع ما يتعلمه كل يوم. وعلاوة على ذلك ، حتى ولو كانت لديك صعوبة في التعبير ، في كثير من الأحيان ، يتلقى الطفل خطابك من دون ضجة.

أنا أصر على فكرة أنه من الواجب على الكبار أخذ زمام المبادرة في الحديث عن الجنس لأن الانتظار حتى يسأل الطفل أسئلته أمر محفوف بالمخاطر. أولا ، لأنه من المحتمل أن الطفل لن يطرح ، أبدا بشكل عفوي أي سؤال و سينمو معه بنيان صورة شخصية ، عن الجنس ، غير مكتملة و مشوهة. ثانيا ، لأن الأطفال الذين يتعرضون للإغتصاب و سوء المعاملة في سن مبكرة يتم التلاعب بهم ولن يتجرؤوا على طرح أي سؤال لعدم الكشف عما يعيشونه حقيقة. في أحسن الأحوال ، يتساءلون حول قضايا يكون موضوعها قريب جدا من السؤال الذي لن يتجرؤون على طرحه. إذا لم نأخذ زمام المبادرة لإجراء محادثات مع هؤلاء الأطفال ، إنهم سيكبرون بمعرفة منحرفة و غير تامة حول ما هو جنسي ، وسأعود لهذا لاحقا لأنه هو موضوع هذا الكتاب ، و لن نُعطى الوسائل للكشف عن الانتهاكات التي يعانون منها.

(يُتبـــــع)